

الثقافي المضمري في القصة القصيرة الجزائرية

the implicit cultural in the Algerian short story

حاج علي ليلي

أ.د محمد بشير بويجرة

جامعة وهران – أحمد بن بلة – وهران (الجزائر)

تاريخ القبول: 2022/04/05

تاريخ الاستلام: 2021/01/24

الملخص

إن المدونة النقدية الجزائرية تتجه إلى دراسة الشعر والرواية، بينما النزر القليل منها يعتني بالقصة القصيرة الجزائرية، وهذا القليل يتجه بدوره إلى منحيين هما: المنحى التاريخي، والمنحى الفني، والنادر جدا هو تناول الوعي الثقافي، وتحولاته ومقولاته الجمالية خاصة في إطار ما يصطلح عليه بالنقد الثقافي، والذي أساسه الأنساق المضمرة وهي نصوص خفية تختبئ داخل البلاغي الجمالي، وتعمل بطريقة عكسية مع المضمير البلاغي، وقد تعد القصة القصيرة من أهم الأجناس الأدبية شأنها شأن الرواية والتي تعتبر ميدانا خصبا للبحث عن الأنساق الثقافية إذ تعتبر مجالا واسعا يزخر بكل ما هو ثقافي، من عادات، وتقاليد، وتاريخ، وخرافة، وحكايات شعبية... الخ ويتم هذا البحث انطلاقا من النص عن طريق الآليات، الإجراءات الخاصة بالنقد الثقافي الذي يعتبر اتجاها نقديا جديدا، يحاول شق طريقه إلى نصوصنا الأدبية في محاولة للكشف عن الوعي الثقافي.

الكلمات المفتاحية:

القصة القصيرة، الثقافي المضمير، النقد الثقافي، الوعي الثقافي، جماليات النص، المتلقي، المجاز، الجملة الثقافية.

Abstrat:

The Algerian production in criticism tends to study poetry and the novel, while very few of it treats of the Algerian short story, and this latter tends to take two directions : the historical and the artistic, and very rare is dealing with cultural awareness, its transformations and aesthetic sayings, especially in the context of what is termed criticism. The cultural, which is based on the implicit patterns, which are hidden texts that hide within the aesthetic rhetoric, and work in a reverse manner with the rhetorical implication, and the short story may be

considered one of the most important literary genres, like the novel, which is considered a fertile field for searching for cultural systems as it is considered a wide field full of all that is cultural, such as customs, traditions, history, myth, folk tales... etc. This research is carried out starting from the text through many mechanisms, and procedures of cultural criticism, which is considered a new critical trend that is trying to forge its way into our literary texts in an attempt to uncover cultural awareness.

Key words:

The short story, the implicit cultural, cultural criticism, cultural awareness, the aesthetics of the text, the receiver, the metaphor, the cultural sentence.

حاج علي ليلي ، neighblue@hotmail.com

تمهيد

إن الأنساق المضمرة هي إحدى المفاهيم الأساسية للنقد الثقافي، والذي هو منهج له أدواته وإجراءاته، يسعى للوصول إلى العلامة الثقافية باحثاً عنها في جماليات النص وفيما وراءها وذلك من خلال الكشف عن النسق المضمرة وهو عكس النسق الدال والمضمرة البلاغي داخل النص الأدبي وبهذا فإن النقد الثقافي يتقاطع مع النقد الأدبي من خلال بحثهما عن النقيضين.

والأنساق المضمرة هي أنساق ثقافية وتاريخية أصلية وهامشية تختبئ في ثنايا النصوص بغرض توجيه ذهنية القارئ وذائقته الثقافية متخطية حدود النص الأدبي إلى لا وعي المتلقي، حيث يقوم النقد الثقافي بتفكيكها وإخراجها عن طريق أدواته الإجرائية وقد أضاف نوعاً ثالثاً للجمل المعروفة في النص الأدبي - الجملة النحوية ذات البعد التداولي والجملة الأدبية ذات البعد البلاغي - وهي الجملة الثقافية والتي تكشف لنا عن النسق الثقافي المضمرة فينتقل مفهوم المجاز البلاغي إلى المجاز الكلي والتورية البلاغية إلى التورية الثقافية وقد أصبح

للنقد الثقافي مصطلحاته التي تميّزه عن النقد الأدبي كما أن له آلياته وإجراءاته الخاصة به والتي شكّل من خلالها اتجاهها نقدياً جديداً، أساسه الأنساق المضمرّة فهي نصوص خفية تختبئ داخل البلاغي الجمالي وتعمل بطريقة عكسية مع المضمّر البلاغي وهو بهذا يخلق سؤالاً جديداً، سؤال النسق عوضاً عن سؤال النص الذي هو حامل لهذه الأنساق، قد نحتاج هنا إلى الوقوف على المعنى اللغوي والفلسفي لكلمة نسق لنرى إن كانت تحمل معاني مشتركة تجعل منها المصطلح الدقيق الذي يفى بما يسعى إليه النقد الثقافي بالإضافة إلى كلمة مضمّر لغة.

1التعريف اللغوي:

2.1 ورد في معجم المعاني الجامع

نَسَقٌ: (فعل)نَسَقَ يَنَسِقُ، تنسيقًا، فهو مُنَسِّقٌ، والمفعول مُنَسَّقٌ نَسَقَ الشَّيْءَ: نظّمه ورتّبه وضبطه

مصدر نَسَقَ النَّسَقُ: ما كان على نظام واحد من كل شيء

شَعْرٌ نَسَقٌ: مستوي النّبتة حَسَنُ التَّرْكِيبِ النَّسَقُ: المنسوق

كلامٌ نَسَقٌ: متلائم على نظام واحد عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ: عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ سَارَ عَلَى نَسَقِهِ: مِنْوَالِهِ، أَي حَاكَاهُ وَسَارَ عَلَى سَيْرِهِ

وَدُرُّ نَسَقٌ: منتظمُ النَّسَقِ اللَّفْظِيّ: الترتيب النحويّ للكلمات في الجملة أو العبارة نسق الكلام: عطّف بعضه على بعضٍ ورتّبه "يحسنُ نَسَقَ الكلام"ومن خلال كل هذه المعاني يمكن أن نحدد المعنى الحقيقي لكلمة نسق وهي ما كان على نظام واحد وعطف بعضه على بعض.

3.1معجم المعاني الجامع

ضَمَرَ يَضْمُرُ، ضُمُورًا، فهو ضامِرٌ ضَمَرَ العُودَ: جَفَّ، رَقَّ أَضْمَرَ أمره: أَخْفَاهُ أَضْمَرَ لَهُ الجِجْدَ: حَبَّأَهُ يُضْمِرُ لَهُ الشَّرَّ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَاذَا تُضْمِرُهُ لَنَا الأَيَّامُ القَادِمَةُ

أَضْمَرْتُهُ الْأَرْضُ: غَيَّبْتُهُ إِمَّا بِسَفَرٍ أَوْ بِمَوْتٍ
بِضْمَرٍ: هُزَالٌ، نَحَاقَةٌ

تكوين فكرة في الذهن تكون متضمنة وغير معبر عنها صراحة
الضَّمِيرُ: ما تُضْمِرُهُ في نفسك، ويصعبُ الوقوفُ عليه
الضَّمِيرُ: استعدادٌ نفسي لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأقوال
والأفكار، والتفرقة بينها، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها ومنه فإن
معنى الكلمة هو السرّ والخفاء أو الغياب بالموت أو السفر. وبهذا إذا جمعنا
كلمة النسق مع المضمّر يصبح معناها نظام معرفة السرّ الخفي.

2. التعريف الفلسفي

"والمقصود بالنسق في الفلسفة والعلوم النظرية مجموعة من الأفكار العلمية
والفلسفية المتآزرة والمترابطة يدعم بعضها بعضا ومؤلفة لنظام عضوي متين
مثل قولنا نسق أرسطو" ونسق نيوتن ونسق هيغل وما إلى ذلك"ⁱ...
كما يعرفه لالاند في موسوعته الفلسفية "نسق بمعنى نظام أو منظومة
système يقول: «جملة عناصر مادية أو غير مادية يتعلق بالتبادل بعضها
ببعض بحيث تشكل كلاً عضويًا "النظام المدرسي"، "الجهاز العصبي" "نسق
المعادلات الثلاث" ستضاف إلى الوحدة السردية التي تولد كل حركة من سابقتها
الوحدة النسقية التي تجعل عدة حركات تصب في هدف واحد"ⁱⁱ.
كما ورد في نفس السياق "بنحو خاص مجموعة أفكار علمية أو فلسفية
متراصة، منطقيًا لكن من حيث النظر إلى تماسكها بدلا من النظر إلى حقيقتها
"ليس النسق شيئا آخر سوى ترتيب مختلف أجزاء فن أو علم في راتوب تتآزر
فيه كلها تآزرا متبادلا وحيث تفسر الأجزاء الأخيرة بالأجزاء الأولى." نسقي
systematique معنى عام ما يشكل نسقا، منظومة أو ما يصدر عن نسق بنحو
خاص"ⁱⁱⁱ. وبهذا فإن معنى النسق في اللغة لا يبتعد عن المعنى الفلسفي للكلمة
ليس فنياً وجمالياً فحسب بل وله أبعاد تاريخية وأيديولوجية. ولمعاناة المؤلف

النسقي أو الثقافة كمؤلف ونظرا لأهمية ما يمكن أن يرصد هذا المنهج من تمحيص لتطور أسئلة الوجود والهوية وكل تلك الأسئلة غير الفنية والمتخفية كأنساق، ارتأينا أن نتطرق للقصة القصيرة الجزائرية كحامل لتلك التضمينات التي يصبح الكشف عنها هو بمثابة الكشف عن أسئلة الثقافة الجزائرية وأسئلة الانسان الجزائري وهو متلبس بتاريخه الحميم.

ومن خلال متابعتي منذ سنوات للمدونة النقدية الجزائرية اتضح لي شيئا فشيئا أن هذه المدونة ولأسباب حقيقة أجهل دوافعها تتجه إلى دراسة الشعر والرواية، بينما النزر القليل منها يعتني بالقصة القصيرة الجزائرية، وذلك القليل يتجه بدوره إلى منحيين، وهما المنحى التاريخي التطوري والمنحى الفني بتنوع تناوله، والنادر جدا هو تناول الوعي الثقافي وتحولاته ومقولاته الجمالية، وقد ارتأيت أن أضع حجرا صغيرا في تراكم لا يزال في بدايته، تراكم يكشف لنا الأنساق الثقافية والأنساق المضمررة غير الواعية، التي تتشكل وتتحطم في تجاذب يومي عبر الكتابات الفنية في القصة القصيرة الجزائرية ولم أجد ما هو أوفى من النقد الثقافي في إظهار هذا الوعي وتلك الأنساق.

وقد رأيت أنه من المفيد تجنب التقسيمات والانتقال بين العناوين بطريقة ربما تعقد للقارئ الرؤية أكثر، لهذا تعمّدت الحديث عن النسق الأصيل والهامشي ورصد العتبات النصّية و الإيديولوجيا والسلطة... إلخ وكل المراحل المنهجية لدرس النسق الثقافي وقد تناولت كل هذا بطريقة مباشرة وأحيانا غير مباشرة تحفيزا لمتابعة المتلقي بشكل سلس.

إن النقد الثقافي يعفينا من البحث المطمئن، بتلك المناهج التي يجد النقاد أنفسهم منخرطين في مسلماتها مسبقا بحكم انتمائهم إلى مجالات معرفية مختلفة كما يشير إلى ذلك المفكر "أيزابجر" في قوله: "نقاد التحليل النفسي ونقاد علم الاجتماع والأخلاقين والجمالين والسيمايين والماركسيين والرمزيين وكل تلك المناهج التي هي في الحقيقية تعمل على تفكيك العمل الأدبي

وتعيد ملاءمته مع ما يتوافق مع هذا المنهج أو ذلك^{iv} أما في النقد الثقافي فلم نعد معنيين بما هو في الوعي اللغوي وإنما نحن معنيون بالمضممرات النسقيّة وهي مضممرات لا تعين المصطلحات البلاغية أو النقدية الأدبية على كشفها أو التركيز عليها. "ويتحدّد النسق من خلال وظيفته وليس من خلال وجوده المجرد والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في شروط محدّدة ومقيّدة."^v

إن المتأمل للأدب الجزائري بكل أنواعه وأجناسه التعبيرية يرى كيف أن هذا الأدب كان ولا يزال لصيقا بحياة الناس وكيف أنه لسان حالهم منذ زمن بعيد في محاولة منه "للارتقاء بالواقع إلى مستوى الفن سواء بترميم حطامه أو بجعل هذا الحطام ألما جميلا ومطهّراً"^{vi}. وقد سعى هذا الأدب دائما إلى مواكبة الواقع ونقله والتعبير عنه بكل صدق وواقعيّة ولاسيّما في لحظاته التاريخية المهمّة ونخصّ بالذكر هنا الأدب في جانبه النثري، دون الشعري والقصصيّ دون غيره، فمن خلال تتبع الدراسات القائمة بمختلف مشاربها عن القصة القصيرة في الجزائر قد نجانب الصواب والدقّة لو قلنا أن معظم الدراسات لم تتناول ذلك الجانب الهام من هذا الفن بوصفه مدوّنة سيسوثقافية ثريّة لتتبع الحلم الجمعي اللاواعي أو "الخطاب"^{vii} بلغة "ميشال فوكو" و"البنية الدالة" بلغة "لوسيان غولدمان" و"النسق الثقافي المضممر" بلغة "الغذامي" و"عبدالله العروي" وبشيء من التاريخانية الضابطة لتغيّره أو ثباته. وما يشجّعنا على ذلك دون غيره هو أن الدراسات الفنيّة للقصة القصيرة الجزائرية التي يمكن أن نضيف لها جديدا حقيقيا يتمثل في مسافات الوعي والقطائع الفكرية إن صحّ التعبير. وفي المقابل فإن "للدراسات الثقافية فضل في توجيه الاهتمام لما هو جماهيري وامتاعي"^{viii}

يمكننا تشريح بعض نماذج القصة القصيرة الجزائرية وتطبيق منهج النقد الثقافي عليها كاشفين جانبا من مضممرها الثقافي "والنسق بحكم أنه ذو طبيعة سردية فهو عادة ما يتحرك في حبكة متقنة ولذا فهو خفيّ ومضممر وقادر على

الاختفاء دائما ويستخدم أقنعة كثيرة أهمها قناع الجمالية اللغوية والبلاغة وجمالياتها، لتمرّ الأنساق المضمرة آمنة مطمئنة من تحت هذه المظلة الوارفة^{ix} في محاولة لإضائه ومراقبة تحولاته داخل النصوص بشكل كرونولوجي وتطوري من حيث الوعي كاشفين ما يمكن أن يفصح عنه النسق المضمّر من تراكم للوعي الجمعي في القصة القصيرة الجزائرية منذ بداياتها الأولى في لحظات التأسيس لوجودها وإلى أن أضحت مجالا لطرح أسئلة الكيان الإنساني الجزائري، الأمر الذي يتيح لنا أيضا مناقشة جدالات الإنسان الجزائري كأحد المختلفين عن العقل المركزي الأوروبي وتقديراته لوعي الذات العاملة بذاتها وبالعالم بشيء من التاريخانية الضابطة.

إن القارئ لنصوص رواد القصة القصيرة الجزائرية وبغض النظر عن اكتمال البناء الفني للتجربة التي كانت في بداياتها التأسيسية فإننا نجد كل النصوص يخترقها نسق مضمّر تكويني ومهيمن يكاد يقول ذاته في كلمتين "أنا آخر" يركز خطاب "أنا آخر" على الحقيقة التي تريد أن تفرض نفسها بكل وسيلة بل وبالقوة، والتي فحوها أن لا وجود لإنسان الأطراف وأن الإنسان كمفهوم إما أن يولد وهو ضمن الحقيقة البيضاء الأوروبية أو أنه نوتة موسيقية خاطئة ضمن أوركسترا الأطراف التي لا يشكلها الوعي اللاتيني وحقيقة النهر الخالد الذي ينبع من أثينا ليصب في أوروبا وعلى الأطراف أن تكون ذوات متلقية لا فاعلة في حضارة النهر الخالد بتعبير "فريدريك نيتشه" في أقول الأصنام على الأقل، إذن هكذا وتحت هذا النير الضاغط على رقبة الشعوب المضطهدة ولد النسق المضمّر الدافع لكل فن باتجاه التعريف بالذوات العامة المنفصلة والمغايرة لحقيقة العقل المركزي الأوروبي أو على الأقل حدث هذا مع القاص الجزائري في بداية نشأة القصة كمضمار فني يتصدى لبشاعة التدمير، هذه الذوات التي تريد الانعتاق وتقاوم الذوبان عن طريق الحفاظ على ثقافتها

إذ يعتقد نقاد الثقافة "أن الثقافة تلعب دورا مهما في التطورات الاجتماعية والسياسية وكذلك في تطوّر وتنمية هوية الفرد"^x

2. أطوار النسق المضمري

1.2 مضمري نسق الغيرية والمقاومة

في عادة أم القرى^{xi} تأتي عتبة النص من خلال العنوان بطريقة فيها الكثير من الحياد و التوجّس، ربما بسبب جغرافيا النص الحساس (مكة) وما سيطرته الكاتب من نقد لمجتمع مكة ووضع المرأة فيه، بالإضافة إلى توجّسات الكاتب كونه جزائري يكتب عن مجتمع آخر بالمعنى القطري وهذا ما يمكن تتبعه من خلال تراجع الكثير من دور النشر وقتها في نشر رواية "رضا حوحو" خشية الوقوع في محذور مجتمع شبه الجزيرة آنذاك، أما شخصية "زكية" رغم أنها لا تخرج من البيت فهي خياطة ماهرة جميلة وتدرّك بعمق كافه أسرار جمالها وجمال ما حولها في صرختها الأخيرة تقدم لنا روح التوتّب إلى الحرّيّة الجديرة بكل حياتها، في عادة أم القرى المضمري واضح وقائم على قسّمات كثيرة عربي ومسلم وحرّ إنه النسق المضمري الذي يشد كلّ حبل السرد عند "حوحو" والذي يعني الاختلاف ومقاومة الآخر المهيمن وهي الجملة التي أردناها أن تلخص النسق المضمري لنصوص المقاومة والتي تعني "أنا آخر" إنه نسق مضمري موجّه ويشكّل النص من ألفه إلى يائه. والجدير بالذكر في هذا الشأن أن الأدب الجزائري أو القصة القصيرة الجزائرية تحديدا لم تتحرك كفن من فنون مقاومة الاستعمار الفرنسي إلا حين كشف هذا الأخير عن نواياه الثقافية لتذويب الأنا العامة، صحيح أن القصة القصيرة ندّدت بجريمة الاستعمار بل الأكيد أنها فعلت هنا وهناك ولكنها لم ترفع شارة الخطر وجرارة التأسيس للكيان الجزائري المسحوق في كل الأبعاد الإنسانية إلا حين تعلق الأمر بمحو الذات وتجريدها مما يميّزها كفاعل ثقافي وحضاري نوعي.

وليست قلة الوعي ولا العبقرية أن يكون الكاتب هو لسان حال النسق المضمّر الأكثر جدلا في عصره ذلك أن الكل كأفراد يتساوون أمام الخطاب بوصفه محمولا جمعيا وتكوينيا بالضرورة وإن "أحمد رضا حوحو" ليس الوحيد من كان يقاوم خطر المسخ الحضاري والذوبان في الآخر والأکید أن هناك قسمات كثيرة في نصوص "أحمد رضا حوحو" تشكّل حرقه الكاتب والمواطن الجزائري الواعي في آن واحد، والقارئ العادي سيكتشف تعدّد هذه القسمات التي تقوم عليها خطابات أخرى كالجميل والخير والطمأنينة والسلام كل هذا يمكن أن ننثى له قسمات تناقضه غير أن كل تلك الجدليات التي سنقيمها بين هذه القسمات لا تخترق كل النصوص وليست مشتركة بين كل الرّواد لهذا لا يفيدنا ذلك في البحث عن النسق المضمّر كفاعل تكويني يخترق كل نصوص المرحلة التأسيسية ووعي روادها. وهذا بالذات ما نريد أن ننوه به وهو فاعلية النقد الثقافي دون غيره من المناهج حيث يتيح للناقد أن يتبصّر النص ومقولاته الثقافية والمعرفية والاجتماعية والجمالية باستعمال كل العلوم الإنسانية الأخرى والنظر من كل زوايا النص بوصفه منتجا للمعرفة وليس فنيا فقط.

2.2 مضمّر نسق الترميم والخراب القائم

لا شك أن ثبات النسق المضمّر حتى المرحلة الجديدة والتي تحوّل فيها من المقاومة إلى ترميم الذات المهشّمة. بل والمتوقفة على بياض يرفض إحتواءات المركزية الأوروبية ويريد أن يؤسس سياقه التاريخي الذي يختص به ويبعده عن وحشيّة ودمار طال الإنسان في أعماقه، هذا الترميم الذي رافق التحرّر من استعمار لم يترك شيئا إلا مجّه بالتزييف المتعمّد لحقائق التاريخ الكبرى بل وتلاعب بكل ما يمكن أن يشكّل بعدا للهوية والجماليات والقيم التي تؤسس عمق وكيان الانسان الجزائري كمختلف ثقافي وحضاري.

لم يعرف أو بالأحرى يمارس الإنسان الجزائري معنى الدولة الحديثة كمكسب، إلا في تلك الصورة المشوّهة التي قدّمها الاستعمار، لنجد هاجس الترميم لدى كتّاب الاستقلال بكل مشاربهم يدعون فيه لضرورة إيقاظ المجتمع على مكسب النظام والتنظيم المدني والانخراط في العصر الحديث على غرار كل الأمم، "مصطفى" الذي يريد أن يوفر ليشتري ساعة بعقارب مضيئة وليستطيع تحديد الوقت في الظلام، مصطفى الذي يناديه صوت غريب كلما خلد إلى النوم "متى تخرج من الصحراء يا مصطفى" صحراء الوقت والمعنى صحراء الجهل والفوضى واللاتراكم هكذا يقدم لنا "الطاهر وطار"^{xiii} هواجسه وهواجس المرحلة إنها دعوة وحثّ للإنسان الجزائري للانخراط في إنتاج تاريخه الخاص، تاريخ المدنية مقابل البداوة، تاريخ الدولة والمؤسسات كمقابل لتاريخ القبيلة والقرابة ولا تكاد تمر فقرة في هذه القصة إلا وكان هذا الحثّ على اليقظة يتبطّنهما.

يحدّثنا "واسيني الأعرج"^{xiiii} بنفس هواجس النسق المضمري وهي الترميم الضروري للانخراط في إنتاج التاريخ، فالبداوة والسذاجة ليستا حكرا على الريف فقط بل هي سلوك في عمق المدينة، نافية أن يكون أي أثر يشير إلى وجود مدينة بالمعنى الحديث، وعبر شخصية "عليلو" يريد أن ينقل لنا المشروع الذي دمر عن آخره أي مشروع دولة الاستقلال والمدن التي أصبحت مجرد مسخ يتعاضم والقرى التي أكلها الفقر والتمهيش ولا تمثل الريف في شيء، والإنسان التائه حتى النخاع في يوميات الخبز والعيش المهين، هكذا ودون اتفاق مسبق يتكشّف لنا النسق المضمري المشترك بين نصوص الروائي "الطاهر وطار" وبين معاصريه "كواسيني الأعرج"، هذا النسق الذي يركز على مقولة ترميم الذات المهوبة، الذات التي تراوح مكانها في انتظار مشروع ينقذها من عبثية اليومي غير المؤسس ومن فوضى الدال الثقافي.

ويمكن أن يتضح هذا النسق المضمّر وبنفس المعنى في الكثير من أعمال جيل الاستقلال، بل ولا يتوقف الأمر عند القصاصين فقط فالشعراء والروائيون والفنانون التشكيليون والمسرحيون وكل المشتغلين في الحقل الرمزي، سنجد دون شك أن "ترميم الذات" وبوادر تراجع حلم دولة الاستقلال يخترق كل تلك النصوص والأعمال الفنية على اختلاف أنواعها ومشاربها الثقافية، للأسف يتعذر نقل نماذج كثيرة في هذا المقام لدعم فكرة هيمنة ووحدة النسق المضمّر في فترة تاريخية معطاة. وكما أسلفنا أن الناطقين بلسان النسق المضمّر في مرحلة ما ليسوا كتابا يريدون إملاء أفكارهم عبر الفن بل هو ما تتيحه العبقريّة الاجتماعيّة في مرحلة ما من مراحل تلملمها التاريخي نحو التغيّر والتطوّر. وهكذا فإن هؤلاء الكتّاب والفنانين الذين يشكل النسق المضمّر المشترك وعميم الفني هم أكثر الكتّاب انصاتا للقضايا الثقافية لمجتمعهم والأكثر يقظة من غيرهم الذين من الممكن أن ينخرطوا في قضايا وهميّة ولا راهنة.

3.2 مضمّر نسق " من الواحديّة إلى التعدّد، الخيبة والأمل "

هكذا يبوح "معزوز" أو "بوشواطة" في " ويأتي الموج امتدادا" للقاص والروائي "أمين الزاوي"^{xiv} وتنبؤاته في تحوّل الدولة المدنيّة لما بعد الاستقلال إلى دكتاتورية في سبعينات القرن الماضي أي مكابدات الجيل الثاني للاستقلال من سلطة لم تعد تراعي أحلام الكادحين بل وأصبحت حبالا يخنق الحرّيات والتعبير الحرّ، لقد واجه جيل السبعينات معاناة الدكتاتورية الاشتراكية على الرغم من أنه كان منخرطا إيديولوجيا في صفها ف"بوشواطة" ينصح الطفل من البداية أن يحذر من أحلامه فينبئه أن الزنازين ستحضنه مع رفاقه الذين اقترفوا الحلم، الحلم بالحرية وبمجتمع متعدّد وحديث. هكذا يتحول النسق المضمّر من "أنا آخر" في الفترة الاستعماريّة إلى ترميم الذات المهشّمة في جيل الاستقلال إلى النسق المضمّر المتطلّع إلى الحرّيّة والتعدّد في جيل السبعينات.

إذن رغم تبني السلطة في سبعينات القرن الماضي مقولات المثقف الحالم ببناء دولة المؤسسات، وحرية الرأي، والخروج من الواحدية السياسية، والفكرية. ورغم أن المثقف الجزائري كان منخرطاً في عملية البناء، إلا أن السلطة القائمة كانت تتبرّم لمطامحه، وأحلامه في الخروج من الواحدية، بما في ذلك سلطة المجتمع إلى أن وجد نفسه _أي المثقف السبعيني_ يعيش حالة اغتراب فكري، وسياسي، جعلته يدوّن ثورته الفنيّة حالمًا بمجتمع حرّ ومتعدّد. يقول الغدّامي: "بواسطة هذا الانضباط سنرى في كل ما نقرأ وما ننتج وما نستهلك هناك مؤلفين اثنين أحدهما المؤلف المعهود مهما تعدّدت أصنافه كالنموذجي والضميني والفعليّ والآخر الذي هو الثقافة".^{xv}

وهكذا فإن النسق المضمرف هو لسان حال المؤلف النسقي ويتجاوز عادة المؤلف المعهود، ويأتي فحواه معزولاً عن فنيّة النصوص وتفاضليتها لأن النسق المضمرف لا واع، وتكويني، مهيم من خلف النص والناص على حدّ سواء، ومحملاً بكلّ محاميل ثقافة المجتمع، من عادات، وتقاليد، وجلاء للراهن الثقافي في الذهنيات العامة. بل ويمكن تحديد مفاهيم العمل الفني للكاتب ذاته من خلال فنياته السردية والطرائق الواعية ولا واعية التي تكتنف النص. ولو تتبعنا منطوقات الأنساق المضمرفة عند جيل السبعينات لوجدنا خيطاً واحداً يشدّ رقعة أحلامها المتمثلة في الدعوة إلى الحرّية، والتعدّد، كسبيل لبعث الحياة تحت سطلة تتكلس يوماً بعد يوم، وتصادر أحلام راهنها.

4.2 مضمرف نسق اليتم وأسئلة الكيان

إن انقسام التجربة الأدبية في سبعينات القرن _والذي بدأ من نهاية الحرب العالمية الثانية_ إلى تجربتين منغلقتين تؤسّس كل واحدة فتوحاتها على نقدها للأخرى جعل من تجارب الدّول المستقلة من نير الاستعمار لا تمتلك خيارات كثيرة بل ومضطرة إلى الانخراط في أحد التجربتين إما ليبرالية أو اشتراكية بل إن معظم التجارب العربية كانت تحمل الأدب عنوة إلى خيارها السياسي الذي

يعوّل على الكاتب تحويله إلى مشروع ثقافي والذي جسده ككتاب الاستقلال عموماً وتمرد عليه جيل السبعينيات وجسد تمرده جيل الثمانينيات، أما جيل التسعينيات فلم يعايش هذه الصراعات إلا على أنها جزء من تاريخ الأدب الجزائري في مرحلته التأسيسية، ليحمل جيل التسعينيات أسئلة جديدة تماماً سيما النصوص التي كتبت أثناء وبعد المأساة الوطنية والتي أرغمت الكاتب التسعيني على مراجعة منظومة القيم وأسئلة الكيان كالهوية والمعنى الميتافيزيقي للوجود.

لقد فتحت أبواب جحيم الأسئلة الأكثر حرقة والأكثر إزعاجاً مع انفتاح الانسان الجزائري ونيله شرف إمكانية وضع كل موروثه الثقافي فوق طاولة النقاش، الشيء الذي حتم على الكاتب التسعيني فتح تجربته على الآخر (الآخر من داخل الثقافة نفسها ومن خارجها أيضاً فلا نكاد نجد كاتب تسعيني إلا وهو يتلمس طريقه نحو أسئلة الكيان. إن ضياع الإشارة والبحث عن مرتكز الهوية هو القلق المبطن أو النسق المضمر والمنعكس في نصوص الجيل الجديد، جيل ما بعد التعددية. إنّ هذا الجيل لا يبحث عن الحرية فقط بل ويراجع تراكم موروثه الثقافي بحثاً عن نقاط ارتكاز يستند إليها أو عليها لتدشين أرضية صلبة تجعل منه مشاركاً في عاصفة المعلوماتية أو ما يصطلح عليه بالعمولة وتؤسس إلى مشروعية الكتابة. إنه جيل اليتيم الإيديولوجي أو "جيل تائه" كما يعبر عنه الناقد والكاتب "أحمد دلباني في كتابه المتاهة"^{xvi}

ولهذا وكمظهر عام لجيل التسعينيات يمكننا اعتباره جيل التجريب الفني بامتياز فكل الأعمال القصصية وحتى الشعرية والروائية هي ورشات مفتوحة على التجريب سواء من داخل الثقافة العربية المغاربية بالعودة إلى الموروث الثقافي العربي والأمازيغي أو من خارج الثقافة العربية عن طريق الاحتكاك والمثاقفة لتجارب تملك نفس المسار التاريخي تقريبا كتجارب أدب أمريكا اللاتينية.

هكذا مع أن البطل هو ذاته الكاتب التائه في جزائر " بني مزغنة " في مونولوج طويل يطرح فيه أزمة الإنسان الجزائري في راهنه، أزمة تجعل من مجتمعه باهت المعالم ،عدمي وغير مهتم البتّة بأسئلته الانطولوجية والتاريخية، إنها أزمة البحث عن الإشارة الضائعة في كومة اللامعنى اليوميّ الذي يلفّ كل منابع الحياة الجزائرية في نظر القاص الجزائري "الخير شوار"^{xvii} في قصته "الطريق إلى جزائر بني مزغنة" هكذا ومن عنوان القصة يتجلى النسق المضمّر في النص التسعييّ نسق هو أيضا دافع لكل ما هو فنيّ إلى اتجاه الأصيل وما يجب أن يستمر وما علينا أن نطرحه من ذواتنا الماضية، دفع باتجاه البحث عن الذات الممكنة كخيطة إبرة يخترق نسيج السرد القصصيّ عند "الخير شوار" وفي كل الكتابات القصصية الجزائرية الحديثة لا يكاد الكاتب على طول النص أن يطرح إيديولوجيا واضحة فلا يسار ولا يمين ولا ديني ولا لاديني لأن أرق الضياع واليتم وضرورة مراجعة وطرح الأسئلة الانطولوجية هو النسق الأصلي القابض على النص من داخله ومن خارجه وأصبحت الأنساق الهامشية كلها مجرد دوران ومراوحات لمحاولة الإفلات إلى راهن جديد أكثر أنسنة وأقل سحرية.

لقد وضحنا في البداية أن تناول النسق المضمّر كان خيارا أردناه لتوضيح المسافات المعرفية وتحولات الوعي السردي للقصة القصيرة الجزائرية، وهذا أيضا ليمدنا ولو بخطاطة بسيطة لمدى مرافقة القصة القصيرة الجزائرية والقاص الجزائري لراهنية أسئلته الإبداعية كما أن المهم في كل هذا هو ما يبدو عليه الفن بصفة عامة كقرن استشعار متقدّم يناقش ويحلّل ويحدّر بل ويقترح الحلول قبل وقتها، ذلك الجانب التنبئيّ، الذي يكسب الفن قدسيّة لا نظير لها.

3. خاتمة

على تواضع ما تقدم من دراسة تبدو القصة القصيرة الجزائرية وهي تستمد شعرية الكتابة وشرعيتها من المأزق التاريخيّ الذي يخصّ الانسان الجزائري دون غيره وبعيدا عن أدبية النصوص القصصيّة فهي أي القصة تضع نفسها

كمضمار نجاح وفشل لكل ما يخصّ الانسان الجزائري من أسئلة يكبلها الواقع وتحزّرها الكتابة.

وهذا ما ندعوه كمؤشر للأدب الحيّ والمتجدّد واللصيق براهنيّة تاريخه مقاوم حين توجب عليه إعلاء صوت شعبه وهو يقاوم برفضه للذوبان في ثقافة استعمارية، ومستنهض لوعي الإنسان الجزائري حين أظهر هذا الأخير شوقه للحرية والاستقلال. داعيا إياه إلى تأسيس دولته وكيانه التاريخي بعد الاستقلال، كما هو واضح طرح قيمة الحياة والموت والتسامح حين علت أصوات التعصب والظلام خلاله، وكل هذا تكشف عنه القصة القصيرة الجزائرية عبر أنساقها المضمرة منذ ظهورها في أشكالها الأولى إلى أن استوت على عرشها بين الفنون الأخرى وفي مصاف هذا النوع من الفن العالمي.

4. ملاحظة:

لا تخضع النصوص المختارة إلى أي انتقاء فني أو تراتبية فنية بل تم الاختيار فقط على أساس فترات التغيرات الاجتماعية والسياسية الكبرى

5. الهوامش

ⁱ جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، ص 465.

ⁱⁱ أندري لالاند الموسوعة الفلسفية معجم مصطلحات الفلسفة النقدية والتقنية، تعريب: خليل أحمد خليل إشراف: أحمد عويدات، المجلد الثالث، عويدات للنشر والطباعة، بيروت لبنان، ط 2008 ص 1417.

ⁱⁱⁱ أندري لالاند المرجع نفسه ص 1417.

^{iv} آرثر ايزا برجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم رمضان بسطاوي، المجلس الأعلى للثقافة مصر، 2003، ص 53.

^v عبد الله العذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط 3، 2005، ص 77.

-
- ^{vi} - سعيد بوطاجين السرد ووهم المرجع مقارنة في النص السردي الجزائري الحديث، منشورات الاختلاف، ط2005، 1، ص150.
- ^{vii} - ينظر ميشال فوكو، الكلمات والأشياء. مركز الإنماء القومي، دط، دت.
- ^{viii} عبد الله الغدامي النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية ص23
- ^{ix} عبد الله الغدامي، نفس المرجع، ص79.
- ^x آرثر إيزنبرجر المرجع السابق، ص195.
- ^{xi} ينظر عادة أم القرى قصة قصيرة لأحمد رضا حوحو منشورات وزارة الثقافة الجزائر 2007، ص07.
- ^{xii} ليلي حاج علي/الطيب لسوس من الأعمال الكاملة للطاهر وطار". موسوعة القصة الجزائرية // ج1 / دار الإرشاد 2013 ص29.
- ^{xiii} وسيني الأعرج، وجهان لعذاب واحد، قصة قصيرة من / موسوعة القصة القصيرة الجزائرية / ليلي حاج علي / الطيب لسوس / 2013 ص403
- ^{xiv} أمين الزاوي، يأتي الموج امتداد، المرجع السابق، 2013 ص37
- ^{xv} عبد الله الغدامي، المرجع السابق ص75
- ^{xvi} ينظر، المتاهة / أحمد دلبياني / دار المتون / 2010
- ^{xvii} الخير شوار، جزائري مزغنة" قصة قصيرة من مجموعة / مات العشق بعده / دار الاختلاف / 2005 ص05.